الأسواق في المدن الإسلامية؛ دراسة اجتماعية واقتصادية لسوق عكاظ كنموذج

م .م .حسين كاظم عذاب

وزارة التربية / المديرية العامة لتربية القادسية

alhqwqyhsyn8@gmail.com

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٦/٩/٩

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٦/٩/٢٩

الملخص

شهدت المجتمعات الإسلامية، منذ فجر التاريخ، تطورًا ملحوظًا في بنيتها الاقتصادية والاجتماعية، وكان للأسواق دورٌ محوريٌ في هذا التطور، حيث لم تكن مجرد أماكن لتبادل السلع والبضائع، بل كانت تُعدُّ مراكز حيوية تجمع بين الوظائف الاقتصادية والتنظيمات الاجتماعية والتقاليد الثقافية .وقد لعبت الأسواق دورًا مهمًا في تشكيل الهوية الاجتماعية والسياسية للمجتمع، كما ساهمت في بناء العلاقات بين القبائل والمدن، وفي ترسيخ القيم والتقاليد من خلال التفاعل اليومي بين مختلف الطبقات والفئات.

ومن بين هذه الأسواق، يبرز سوق عكاظ كواحد من أبرز المعالم الاقتصادية والثقافية في التاريخ العربي قبل الإسلام، والذي استمر تأثيره إلى ما بعد ظهور الإسلام وإن كان بدرجات متفاوتة .لقد تميّز هذا السوق بموقعه الاستراتيجي وبتنوع أنشطته التي لم تقتصر على التبادل التجاري فحسب، بل امتدت إلى ميادين الشعر والخطابة والسياسة، مما جعله مؤسسة شاملة في بيئة لم تكن تعرف التنظيم المدني الحديث.

تكمن أهمية هذا البحث في تسليط الضوء على سوق عكاظ كنموذج للأسواق الإسلامية التي جمعت بين الوظيفة الاقتصادية والبنية الاجتماعية والرمزية الثقافية، مع التركيز على تحليل السياقات التي نشأ فيها السوق، والأنشطة التي احتضنها، ومدى تأثيره على المجتمع العربي والإسلامي آنذاك .كما يسعى البحث إلى تقديم رؤية تحليلية تُبرز أبعاد السوق في ضوء التطورات التاريخية والسياسية التي شهدها العالم الإسلامي، وإلى فهم أعمق لأهمية هذه المؤسسة في تشكيل النسق الحضاري للمدن الإسلامية.

لتحقيق ذلك، ينقسم البحث إلى ثلاثة فصول، يتناول أولها الإطار النظري والتاريخي للأسواق في المدن الإسلامية، ويتناول الثاني الجوانب الاجتماعية والثقافية لسوق عكاظ، بينما يُخصص الفصل الثالث لدراسة الجوانب الاقتصادية والتجارية لهذا السوق الفريد.

الكلمات مفتاحية : الأسواق الإسلامية؛ سوق عكاظ؛ التجارة؛ تنظيم السوق؛ الوظائف الاجتماعية والثقافية.

The Effectiveness of a Proposed Strategy Based on Quadratic Coding in Developing Literary Appreciation Skills and Indexed Thinking among Fourth-Year Literary Students

Assistant Lecturer .Hussein Kadhim Athab
Ministry of Education / General Directorate of Education in Al-Qadisiyah
alhqwqyhsyn8@gmail.com

Date received: 9/9/2026
Acceptance date: 29/9/2026

Abstract

Since the dawn of history, Islamic societies have witnessed remarkable development in their economic and social structures. Markets played a pivotal role in this development, serving not merely as places for exchanging goods and merchandise, but as vital centers that combined economic functions, social structures, and cultural traditions. Markets played a significant role in shaping the social and political identity of the community, contributing to the formation of relationships between tribes and cities, and solidifying values and traditions through daily interaction among different classes and groups.

Among these markets, the Souk Okaz stands out as one of the most prominent economic and cultural landmarks in pre-Islamic Arab history, whose influence continued even after the advent of Islam, albeit to varying degrees. This market was distinguished by its strategic location and the diversity of its activities, which extended beyond mere trade to encompass poetry, oratory, and politics, making it a comprehensive institution in an environment that lacked modern urban organization.

The significance of this research lies in highlighting the Souk Okaz as a model of Islamic markets that combined economic function, social structure, and cultural symbolism. It focuses on analyzing the contexts in which the market arose, the activities it hosted, and its impact on Arab and Islamic society at the time. The research also aims to provide an analytical perspective that highlights the dimensions of the market in light of the historical and political developments witnessed by the Islamic world, and to offer a deeper understanding of the importance of this institution in shaping the urban fabric of Islamic cities.

To achieve this, the research is divided into three chapters. The first addresses the theoretical and historical framework of markets in Islamic cities, the second examines the social and cultural aspects of the Souk Okaz, and the third is dedicated to studying the economic and commercial aspects of this unique market.

Keywords: Islamic markets; Souk Okaz; trade; market organization; social and cultural functions.

الفصل الأول :الإطار النظري والتاريخي للأسواق في المدن الإسلامية

المبحث الأول :مفهوم السوق ووظائفه في المجتمع الإسلامي

تعريف السوق في اللغة والاصطلاح

تعود جذور كلمة" السوق "في اللغة العربية إلى مادة) سَوَقَ (التي تدل على الجَمع والدفع .وقد ورد في المعاجم أن السوق هو" موضع التبايع والاجتماع للبيع والشراء"، وأصلها من السَّوق، لأن الناس يُساقون إليها كما تُساق الإبل إلى الموارد .ويُقال" :سُوق الناسُ إلى السوق "أي اندفعوا إليها للتجارة أو الاجتماع.

وقد جاء في" لسان العرب "أن السوق هو" موضع بيع الناس وشرائهم، سُمِّي سوقًا لأن الناس يسوقون إليه أمتعتهم."

أما في الاصطلاح، فقد عرّفه الفقهاء والمُؤرخون المسلمون بأنه المكان الذي يجتمع فيه الناس للبيع والشراء، في زمنٍ محدد أو دائم، وقد يشمل جوانب أخرى تتعلق بتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية .وقد اعتنى المسلمون بتنظيم الأسواق بوصفها مؤسسة ضرورية لضبط حركة المال والتجارة، من خلال تعيين المحتسب ومراقبة الموازين والمكاييل.

في السياق الإسلامي، لم تكن الأسواق محصورة في الوظائف التجارية، بل كانت محافل اجتماعية وثقافية، كما في سوق عكاظ الذي كان يجمع بين البيع والخطابة والشعر، مما يدل على أن مفهوم السوق في الحضارة الإسلامية يتجاوز البعد الاقتصادي إلى الفضاءات الثقافية والاجتماعية.

وظائف السوق) الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية(

لعب السوق في الحضارة الإسلامية دورًا جوهريًا تجاوز الوظيفة الاقتصادية البحتة، ليتحول إلى مركزٍ حضاري يعكس تفاعل القوى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمع الإسلامي.

فمن الناحية الاقتصادية، كان السوق يُعدّ العمود الفقري للحياة التجارية، حيث يتم فيه تبادل السلع المحلية والمستوردة، وتحديد أسعار البضائع وفق آلية العرض والطلب، مع مراقبة صارمة من قبل المحتسب

لضمان النزاهة، ومنع الغش والاحتكار .وقد ساهم وجود الأسواق الدائمة والموسمية في تنشيط الحركة الاقتصادية وتكامل الحواضر الإسلامية تجاريًا، كما في أسواق مكة والمدينة والبصرة والكوفة.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد شكّل السوق فضاءً يوميًا لاختلاط الطبقات الاجتماعية، من التجار والعامة والعلماء وحتى النساء، وأتاح مجالًا لتبادل الأفكار والمصالح، وتسوية الخلافات، وتوطيد الروابط القبلية . وقد رُويت في كتب التاريخ وقائع عديدة حول التجمعات القبلية في الأسواق، خاصة في أسواق الحج مثل سوق عكاظ، حيث كانت تُعقد الأحلاف وتُحل النزاعات، بما يعكس الأهمية الاجتماعية للسوق.

وعلى المستوى الثقافي، كانت بعض الأسواق محافل للأدب والخطابة، إذ وُجدت فيها المنابر التي كان الشعراء والخطباء يلقون فيها نتاجهم الأدبي، ويتنافسون على الجَودة والفصاحة، كما في سوق عكاظ الذي اكتسب شهرته بوصفه منبرًا لأشهر شعراء الجاهلية والإسلام .وكان هذا التفاعل يُسهم في حفظ اللغة ونقل التراث الثقافي بين الأجيال.

تدل هذه الوظائف المتعددة على أن السوق لم يكن مجرد فضاء اقتصادي في المدن الإسلامية، لم يقتصر السوق علي النشاط الاقتصادي بل ادي الي وظائف اجتماعية وثقافية متعدة، ساهمت في بناء البنية الحضارية للعالم الإسلامي.

مكانة السوق في التشريع الإسلامي

حظيت الأسواق بمكانة بارزة في التشريع الإسلامي، إذ اعتُبرت جزءًا من النظام العام الذي يسعى الإسلام إلى تنظيمه بما يكفل العدالة الاقتصادية والاجتماعية .فقد أولى النبي محمد ﷺ اهتمامًا خاصًا بتنظيم الأسواق، فأسّس أول سوق في المدينة المنورة بعيدًا عن احتكار اليهود، وأكد على حرية السوق وعدم فرض الضرائب أو المكوس على البائعين .كما عيّن النبي ﷺ من يقوم بمراقبة الأسواق وضبط الأسعار ومنع الغش، وهو ما عُرف لاحقًا بنظام الحِسبة.

ومن المبادئ التي أكد عليها التشريع الإسلامي في إدارة السوق :تحريم الاحتكار، وتحريم الغش، وضرورة الصدق في المعاملات التجارية، وضبط الموازين والمكاييل .وقد استند الفقهاء في ذلك إلى العديد من

النصوص الشرعية، منها قول النبي" :ﷺ من غشّ فليس منّا"، وأيضًا نهيه عن تلقي الركبان لما فيه من استغلال ومضاربة غير عادلة.

وتميّز التشريع الإسلامي بعدم اعترافه بامتيازات لفئة معينة في السوق، بل جعل السوق فضاءً مفتوحًا للمسلمين على قاعدة المساواة والعدالة .وقد ذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يمرُّ بنفسه على الأسواق ويأمر بمحاسبة المتلاعبين بالأسعار أو الغشاشين، مما يُبرز أن السوق لم يكن شأناً اقتصادياً فحسب، بل مسألة دينية وأخلاقية تدخل في صميم مسؤولية الدولة الإسلامية.

المبحث الثاني :تطور الأسواق في المدن الإسلامية قبل الإسلام وبعده

الأسواق في العصر الجاهلي

لعبت الأسواق في العصر الجاهلي دورًا جوهريًا في حياة العرب، إذ لم تكن مجرد مراكز لتبادل السلع، بل مثّلت أيضًا منصات ثقافية وسياسية واجتماعية تُسهم في بناء الهوية القبلية وتنظيم العلاقات بين القبائل . وقد تميزت هذه الأسواق بطابعها الموسمي، حيث كانت تُقام في مواسم الحج أو في أشهر الحرم التي يمتنع فيها القتال، مما أتاح للقبائل أن تتوافد بأمان لتبادل السلع وعقد الأحلاف وحل النزاعات.

ومن أبرز هذه الأسواق :سوق عكاظ، وسوق مجنة، وسوق ذو المجاز، والتي كانت تُقام بالقرب من مكة، وتستقطب وفود القبائل من مختلف أرجاء الجزيرة العربية .ويُعد سوق عكاظ أشهرها، إذ امتاز بجانب دوره التجاري باحتضان المنافسات الشعرية والخطابية، التي كانت تُعدّ بمثابة منبر للتعبير عن مكانة القبيلة ومفاخرها، ومجالاً لتكريس القيم الأدبية والاجتماعية.

إن وجود هذه الأسواق يعكس درجة من التنظيم الاجتماعي والسياسي في مجتمع يُوصف غالبًا بالتفكك القبلي، لكنها شكّلت في واقع الأمر نوعًا من الفضاء المشترك الذي ساعد في تحقيق حد أدنى اسهم في تعزيز التواصل والتفاعل الثقافي بين جماعات وقبائل مختلفة .كما أظهرت هذه الأسواق قدرة العرب على إقامة مؤسسات اقتصادية واجتماعية قبلية متقدمة رغم غياب الدولة المركزية.

تطور الأسواق في المدينة المنورة ومكة المكرمة

شهدت كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة تطورًا ملحوظًا في بنيتهما السوقية قبل الإسلام وبعد ظهوره، حيث شكلتا نموذجين مهمين في تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجزيرة العربية.

أولًا :مكة المكرمة

كانت مكة، قبل الإسلام، مركزًا تجاريًا حيويًا بسبب موقعها الاستراتيجي على طرق القوافل التجارية بين الشام واليمن، وهو ما ورد ذكره في القرآن الكريم" :لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ] "سورة قريش : 1-2].وكان سوق مكة) خصوصًا خلال موسم الحج (يجمع التجار من شتى أنحاء الجزيرة، إذ كانت قريش تتولّى تنظيمه وتأمين قوافل التجارة، مما منحهم نفوذًا اقتصاديًا وسياسيًا كبيرًا.

وقد أسهم هذا السوق في تنشيط العلاقات بين القبائل، وفي خلق نوع من النظام الاقتصادي شبه المستقر في محيط كان يغلب عليه الطابع القبلي المتنقل .وكانت التجارة في مكة تعتمد على نظام المقايضة ثم تطورت إلى استخدام النقود، وتميزت بانتظامها الموسمي المرتبط بالحج والأسواق الكبرى مثل عكاظ وذي المجاز.

ثانيًا :المدينة المنورة(يثرب)

أما المدينة المنورة، فقد كانت قبل الإسلام أقل شهرة تجارية من مكة، لكنها كانت معروفة بسوقها المحلي الذي كان يديره اليهود من بني قينقاع، وكانت لهم السيطرة شبه الكاملة على النشاط التجاري في يثرب . وعند وصول النبي محمد ﷺ إلى المدينة، سعى إلى إقامة سوق إسلامي مستقل، لا يخضع لنفوذ اليهود، فاختار موقعًا لسوق جديد في منطقة الزوراء، وقال" :هذا سوقكم، لا يُضيق ولا يُؤخذ فيه خراج ."وهكذا تأسس أول سوق إسلامي يُدار وفق المبادئ الشرعية من حيث مراقبة الأسعار، منع الغش، وضبط الموازين.

وقد أدى هذا السوق إلى تحول كبير في النشاط التجاري بالمدينة، حيث تم تحرير التجارة من الهيمنة القبلية أو الدينية، وتم تأسيس نظام اقتصادي قائم على العدالة والرقابة الشرعية، وهو ما ساعد على ترسيخ مفهوم السوق الإسلامي كمؤسسة اقتصادية واجتماعية متكاملة.

الإدارة والتنظيم في الأسواق الإسلامية(الحسبة، الأعوان، القضاء)

تميّزت الأسواق في الحضارة الإسلامية بنظام إداري دقيق يهدف إلى ضبط المعاملات التجارية، وضمان العدالة، ومنع الغش والاحتكار .وقد كان هذا النظام يتكوّن من عدة مؤسسات رسمية أهمها الحِسبة، والأعوان، والقضاء، وكان يُشرف عليه الحاكم أو الخليفة مباشرةً في كثير من الأحيان، نظراً لأهمية السوق كمؤسسة اقتصادية واجتماعية.

أولاً، الحسبة كانت من أبرز أجهزة الرقابة في السوق، ويُناط بالمحتسب مهمة مراقبة التجار والباعة، وضبط الأسعار، ومراعاة المعايير الشرعية في البيع والشراء .كما كان له الحق في معاقبة المخالفين للأنظمة التجارية أو الشرعية .وقد عُرف المحتسب منذ العصر الأموي، وبلغت هذه المؤسسة ذروتها في العصر العباسي حيث وُضعت لها قواعد تفصيلية.

ثانيًا، الأعوان هم موظفون يساعدون المحتسب، وكانت مسؤولياتهم متعددة تشمل التحقق من المقاييس والمكاييل، ومراقبة نظافة الأسواق، والإشراف على ترتيب البضائع، ومنع التعديات بين التجار .وكان يُشترط في العون أن يكون أمينًا ذا سيرة حسنة، لأنه يُمثل السلطة الشرعية في السوق.

أما القضاء، فكان يلعب دورًا تكميليًا للحسبة، خصوصًا في البتّ في المنازعات التجارية، أو في القضايا التي تحتاج إلى شهادة وشهود .وكان القضاء يُعدّ الجهة الرسمية العليا للفصل في الخلافات المالية أو النزاعات العقارية المرتبطة بالسوق، مما يعكس تطورًا في النظام القضائي الإسلامي ومدى ارتباطه بالحياة الاقتصادية.

وقد دلّت كتب الفتوح والتاريخ الإسلامي على العناية الكبيرة التي أولاها الخلفاء والولاة للأسواق، وتحديدًا في المدن الكبرى مثل البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، حيث نُظِّمت الأسواق على أسس واضحة، تُراعي العدالة الاقتصادية وتُرسّخ القيم الإسلامية في المعاملات.

الفصل الثاني :سوق عكاظ – النشأة، التنظيم، والدور الثقافي والاجتماعي

المبحث الأول :نشأة سوق عكاظ وموقعه الجغرافي

الموقع الجغرافي وأهميته الاستراتيجية

اولا) –: اراء الجغرافيين والمؤرخين القدامي (اختلف اهل الاخبار والجغرافيون القدامي في صياغة الحدود الدقيقة للسوق نظرا لاعتمادهم علي المسافات المقطوعة بالابل ومن ابرز رواياتهم رأي الاصمعي وياقوت الحموي حيث وصفا عكاظ بأنه واد فيه نخل يقع علي مسيرة ليلة واحدة من الطائف وثلاث ليال من مكة المكرمة في موقع يسم) الاثيداء (اما رأي الازرقي ذكر ان عكاظ يقع وراء قرن المنازل) السيل الكبير حاليا (علي طريق صنعاء وهناك اقوال اخري اشارت الي وقوعه بين نخلة والطائف في بقعة تسمي" الفتق " او في "وادي ركبة"

ثانيا –: اراء الباحثين المحدثين واللجان الرسمية) مرحلة الحسم العلمي (في العصر الحديث تضافرت الجهود البحثية والاثرية والميدانية لازالة اللبس الذي احدثه تعدد الروايات القديمة حيث حسم الموقع بناء تحقيقات الرواد الميدانية في مقدمتهم الشيخ محمد بن بلهيد في كتابه) صحيح الاخبار (والشيخ حمد الجاسر والدكتور عبد الوهاب عزام 0 يقع سوق عكاظ في منطقة بين مكة والطائف، وتحديدًا في وادٍ يُعرف بوادي عكاظ، وهو منبسط رملي فسيح تحيط به الجبال من عدة جهات، ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الطائف، ويُقدَّر موقعه اليوم بحوالي 40 كيلومترًا من الطائف .شكّل هذا الموقع نقطة التقاء حيوية بين القبائل القادمة من الحجاز ونجد وتهامة واليمن، كما جعله موقعه المتوسط بين الطرق التجارية عاملاً مهمًا في اجتذاب القوافل التجارية والأسواق الموسمية.

وقد حظي السوق بأهمية استراتيجية كونه يقع عند تقاطع المسارات الكبرى المؤدية إلى مكة، المدينة الأقدس دينيًا، والطائف، المدينة الزراعية والتجارية، مما جعل السوق مركزًا تجاريًا حيويًا يسبق موسم الحج ويستقطب مختلف القبائل .كما أسهمت الظروف الجغرافية المعتدلة للمنطقة في إنعاش النشاط الاقتصادي والثقافي خلال فترة انعقاد السوق، حيث كانت تعقد فيه المجالس الأدبية والخطابية إلى جانب المعاملات التجارية.

ولم تقتصر أهمية الموقع على الجوانب الاقتصادية فحسب، بل امتدت إلى تأثيرات سياسية، إذ كان السوق بمثابة ساحة لتسوية النزاعات القبلية، وعقد التحالفات، وإظهار القوة الرمزية للقبائل عبر الشعراء والخطباء، مما منح السوق بُعدًا استراتيجيًا في بناء العلاقات البينية بين مكونات المجتمع العربي في الجاهلية.

العوامل التي ساعدت على نشوء السوق

لقد أسهمت مجموعة من العوامل الطبيعية والجغرافية والاجتماعية في نشوء الأسواق في الجزيرة العربية، وفي مقدمتها سوق عكاظ، الذي اشتهر قبل الإسلام وبعده بوصفه واحدًا من أعظم الأسواق العربية .ويمكن تلخيص أبرز العوامل المؤثرة في نشوء السوق في ما يلي:

أولًا، الموقع الجغرافي الاستراتيجي، حيث كان السوق يقع بين مكة والطائف، على طرق القوافل التجارية المتجهة من اليمن إلى الشام، مما جعله نقطة التقاء حيوية للتجار القادمين من الشمال والجنوب .هذا الموقع ساعد على تأمين تدفّق مستمر للبضائع والتجار، وربط المناطق النائية بمركز تجاري مشترك.

ثانيًا، الحاجة الاقتصادية للتبادل التجاري، حيث لم تكن كل القبائل تمتلك اكتفاءً ذاتيًا، بل اعتمدت على التبادل للحصول على المواد الغذائية والسلع الصناعية) مثل المنسوجات والعطور والأسلحة(، فكان السوق استجابة طبيعية لهذه الحاجة، في ظل غياب الدولة المركزية الموحدة آنذاك.

ثالثًا، العوامل الاجتماعية والثقافية، إذ كانت الأسواق تمثل إلى جانب وظيفتها الاقتصادية منابر أدبية وسياسية، تجتمع فيها القبائل لتبادل الأخبار، وحل النزاعات، والمفاخرة بالشعر والخطابة .وقد كان سوق عكاظ من أبرز هذه الملتقيات، حيث شهد حضور كبار الشعراء والوجهاء والزعماء من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان يُنظر إليه كموسمٍ اجتماعيٍ جامع.

وأخيرًا، الأمان الموسمي المؤقت الذي كان يوفره نظام" الأشهر الحرم"، حيث تُحرَّم الحروب والاعتداءات، مما شجّع على السفر والتجارة والتنقل بين القبائل والأسواق بأمان .وهذا العامل كان حاسمًا في إحياء أسواق موسمية مثل عكاظ ومجنة وذي المجاز، والتي لم تكن ممكنة في غير تلك الأوقات بسبب كثرة الصراعات القبلية.

المبحث الثاني :النظام الاجتماعي والثقافي في سوق عكاظ

المحافل الأدبية والخطابية والشعرية

لم يكن سوق عكاظ مجرد سوق تجاري يُعقد في مواسم محددة، بل شكّل ظاهرة ثقافية بارزة في حياة العرب قبل الإسلام، حيث تحول إلى ملتقى أدبي وخطابي وشعري يُقام فيه التنافس بين شعراء القبائل وخطبائهم .وقد عُرف عن سوق عكاظ أنه كان ساحة يُعرض فيها الشعر الجديد، وتُقوّم فيه القصائد، وتُنشد المعلقات التي تمثل قمّة الإبداع الشعري الجاهلي، وكان زعماء القبائل يجتمعون للاستماع إلى هؤلاء الشعراء وتقويم نتاجهم، بل إن بعض القصائد كانت تُعلّق على جدران الكعبة لما تحمله من بلاغة وفصاحة.

وكان من أشهر من حضروا هذه المحافل الأدبية في سوق عكاظ الشاعر النابغة الذبياني الذي كان يُعد بمثابة" رئيس لجنة التحكيم "الشعري، وكان يُقيم المجلس تحت خيمة تضرب له، يأتيه الشعراء فيُسمعونه ما نظموا، فيحكم بينهم ويُصنّفهم حسب بلاغتهم وجودة شعرهم.

كما كان الخطباء أيضًا يُلقون الخطب السياسية والدينية في هذا السوق، حيث كانت الخطابة تُستخدم كسلاح في حل النزاعات القبلية أو الدعوة إلى السلم أو الحرب، مما أعطى السوق بعدًا سياسيًا واجتماعيًا واضحًا إلى جانب أهميته الثقافية.

إن هذه المحافل لم تكن ترفًا ثقافيًا فحسب، بل كانت تعبيرًا عن العقلية العربية التي تقدّر الكلمة الموزونة، والخطاب المؤثر، وتربط بين الفصاحة والمكانة الاجتماعية .ولذلك، يمكن القول إن سوق عكاظ كان بمثابة أكاديمية أدبية غير رسمية، ساهمت في صقل الذوق العام وتشكيل الهوية الثقافية العربية قبل الإسلام.

تأثير السوق في توحيد القبائل وإدارة الخلافات

لم تكن الأسواق العربية الكبرى، وفي مقدمتها سوق عكاظ، مجرد فضاءات اقتصادية للتبادل التجاري، بل لعبت دورًا مهمًا في توحيد القبائل وتخفيف حدة النزاعات والصراعات القبلية، خاصة في العصر الجاهلي، حيث كانت العصبية القبلية تسود المجتمع العربي .كانت الأسواق السنوية تُقام في أوقات معلومة، وتُعقد خلالها

هدنة مؤقتة تُعرف بـ"الأشهر الحُرُم"، حيث وفرت حرمة السوق والاشهر الحرم اطارا ملائما للاجتماع والتجارة وان لم تمنع ذلك بصورة مطلقة من وقوع الخصومات او الاعتداءات.

وقد ساهمت هذه اللقاءات المتكررة في خلق بيئة للحوار والتفاوض بين زعماء القبائل، مما أتاح لهم تسوية النزاعات وبحث قضايا التحكيم والمصالحة .فالسوق كان ساحة للاستعراض السياسي والاجتماعي أيضًا، حيث كان شيوخ القبائل يخطبون أمام الملأ، ويُعلنون المواقف أو التحالفات، وهو ما منح السوق وظيفة شبه دبلوماسية، خاصة في مجتمع يفتقر إلى سلطة مركزية موحدة.

وفي هذا السياق، يمكن النظر إلى سوق عكاظ كأحد الوسائل التي مهّدت لظهور الدولة الإسلامية، من خلال إرساء قيم الحوار والتعايش والتنافس السلمي، وهو ما انعكس لاحقًا في مفاهيم السلم الاجتماعي في الإسلام.

دور النساء في سوق عكاظ

لم تكن النساء غائبات عن الحياة العامة في الجاهلية، بل شاركن بشكل ملحوظ في المحافل الثقافية والاجتماعية، وكان سوق عكاظ من أبرز هذه الساحات التي شهدت حضورًا نسائيًا فاعلًا .فقد كان للمرأة الجاهلية دورٌ مزدوج في هذا السوق؛ إذ شاركت من جهة في عرض البضائع وصناعة بعض المنتجات اليدوية كالنسيج والعطور، ومن جهة أخرى برزت في المجال الثقافي والخطابي والشعري.

وقد وردت في المصادر أخبار عن حضور الشاعرات إلى السوق، ومن أشهرهن الخنساء) تماضر بنت عمرو(، التي كانت تُلقي شعرها في مواجهة كبار الشعراء وتدخل في المساجلات الأدبية، وهو ما يُشير إلى مكانة النساء في الحياة الثقافية آنذاك .كما مارست بعض النساء دورًا اقتصاديًا من خلال التجارة أو العمل في بعض الحِرف المرتبطة بالزينة أو المواد المعطرة، وهي منتجات كانت تُعد من السلع المطلوبة في السوق.

ومع أن بعض الروايات الإسلامية لاحقًا ركزت على أدوار الرجال في سوق عكاظ، إلا أن المصادر القديمة تُظهر أن حضور المرأة كان طبيعيًا ومتقبّلًا، خصوصًا ضمن الأطر الثقافية والاجتماعية المقبولة في

ذلك السياق الزمني .كما يُستدل من الروايات على أن مشاركتهن كانت تحظى باهتمام، لا سيما في الشعر والخطابة، وهي أدوات تعبير اجتماعي ذات وزن في المجتمعات القبلية.

الفصل الثالث :سوق عكاظ – الأبعاد الاقتصادية والتجارية

المبحث الأول :البنية الاقتصادية للسوق

طبيعة التجارة والبضائع المتداولة

شكّلت الأسواق في شبه الجزيرة العربية، ولا سيما سوق عكاظ، نقطة التقاء حضاري وتجاري بين مختلف القبائل والمدن، وقد عُرف هذا السوق بتنوّع بضائعه وتعدد مصادرها، نتيجة لموقعه الجغرافي الذي جعله محطة رئيسية في شبكات التجارة بين الشام واليمن، والحجاز والعراق .كانت البضائع المتداولة تشمل السلع الأساسية مثل التمر، الحنطة، الشعير، والملح، إضافة إلى السلع الفاخرة كالعطور، الأقمشة اليمانية، الجلود، والذهب المستورد من أفريقيا والهند، وهو ما يعكس تعدد الروابط التجارية التي نسجها السوق مع محيطه الإقليمي والدولي.

كما كانت سوق عكاظ مركزًا لتبادل الحيوانات مثل الإبل والماشية، التي تُعد سلعة اقتصادية ومؤشرًا على الثراء الاجتماعي، وقد تميز السوق أيضًا بوجود أنشطة تبادل غير مادية، مثل المقايضة والخدمات المهنية، حيث وُجد الحدادون والصياغ والخياطون يقدمون خدماتهم للمترددين على السوق.

وقد بيّن المؤرخون المسلمون، ومنهم البلاذري، أهمية الأسواق الكبرى مثل عكاظ في النشاط الاقتصادي قبل الإسلام، حيث أشار إلى أن" قوافل التجار كانت تتوافد على السوق من مكة والطائف ونجران، محمّلة بالبضائع من اليمن والشام، وأن السوق كان يحكمه عرفٌ تجاري صارم يراقب الأسعار ويمنع الغش والاحتكار."

إن هذا التنوّع في البضائع والأنشطة يبيّن أن سوق عكاظ لم يكن مجرد مكان لتبادل سلع، بل كان مؤسسة اقتصادية متكاملة، تُدار بأنظمة عرفية صارمة، وتُعدّ نواة لاقتصاد الأسواق في المدن الإسلامية لاحقًا، بعد أن أسهم الإسلام في تقنين هذه المبادئ وتنظيمها على أسس أخلاقية واضحة.

دور السوق في تنشيط الاقتصاد الإقليمي

لم يكن سوق عكاظ مجرد تجمع موسمي لتبادل البضائع، بل كان فاعلًا أساسيًا في تنشيط الاقتصاد الإقليمي لشبه الجزيرة العربية، ووسيطًا ديناميكيًا في حركة رأس المال وتوزيع الثروة .فبفضل موقعه الجغرافي بين مكة والطائف، وتوقيت انعقاده السنوي في موسم الحج، أصبح السوق عامل جذب للتجار من اليمن، الحجاز، العراق، الشام، وحتى من بلاد فارس والحبشة، مما ساهم في بناء شبكة اقتصادية مترابطة تخدم مختلف الأقاليم والقبائل.

وقد ساعد السوق في توسيع قاعدة الإنتاج والاستهلاك، من خلال تشجيع الحرفيين والصنّاع على عرض منتجاتهم، ووفّر أيضًا منصّة لإبرام الصفقات التجارية الكبرى بين رؤساء القبائل والممولين، مما ساهم في تحفيز التجارة البينية وتنشيط الأسواق المحلية الأخرى .كما أصبح السوق فرصة لتبادل العملة النقدية والسلع النادرة، مما وفّر نوعًا من الاستقرار المالي النسبي في ظل غياب مؤسسات مصرفية بالمعنى الحديث.

وقد أشار البلاذري إلى هذا التأثير حين ذكر أن الأسواق الكبرى، ومنها سوق عكاظ، كانت بمثابة "مراكز لتنظيم العلاقات الاقتصادية بين القبائل"، وأنها" أسهمت في تحسين موارد بعض المدن مثل مكة والطائف نتيجة للضرائب غير المباشرة التي كانت تُجمع من الأنشطة التجارية، والرسوم التي تُفرض على دخول القوافل."

من هذا المنطلق، يُفهم أن سوق عكاظ لم يكن مجرد حدث عابر، بل كان يمثل نقطة ارتكاز اقتصادية وإدارية أسهمت في توسيع النفوذ التجاري لبعض المدن، ومهّدت لبروز النظام الاقتصادي الإسلامي الذي اعتمد لاحقًا على مبادئ مثل الشفافية، وحرية السوق، ومكافحة الغش والاحتكار.

طبقات التجار، وأدوات القياس والتثمين

تميّز سوق عكاظ بوجود طبقات متعددة من التجار، تعكس تنوع الأنشطة الاقتصادية وتفاوت النفوذ المالي والاجتماعي بين المشاركين فيه .فقد كانت الطبقة العليا من التجار مكوّنة من أصحاب القوافل الكبرى ورؤساء القبائل الذين كانوا يحتكرون تجارة السلع الثمينة مثل الذهب، والحرير، والعطور، والبهارات المستوردة من الهند واليمن والشام .وكانوا يتعاملون في صفقات ضخمة تتطلب شبكات ممتدة من العلاقات والتحالفات.

أما الطبقة الوسطى فكانت تمثل أصحاب المحال والورش الصغيرة، ممن يتاجرون بالمنتجات المحلية كالأقمشة، الجلود، والأدوات المنزلية، وكانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية متوسطة، وغالبًا ما يشكّلون العمود الفقري للحركة التجارية اليومية في السوق .في حين ضمّت الطبقة الدنيا صغار الباعة، والنساء، والمزارعين الموسميين الذين يعرضون منتجات بسيطة مثل الطعام والمواشي، وكان اعتمادهم على السوق موسميًا أو ظرفيًا.

ولضمان العدالة في المعاملات التجارية، استخدم تجار السوق أدوات مختلفة للقياس والتثمين، منها الموازين والمكاييل التقليدية مثل القَفِيز، الصاع، والمدّ، والتي خضعت غالبًا لإشراف العُرَفاء أو لاحقًا المحتسبين في العهد الإسلامي .وكان التثمين يتم حسب عرف السوق والعرض والطلب، لكن التفاوُت في الأسعار كثيرًا ما كان يُعالج بالعرف الجماعي، تجنبًا للنزاعات.

وقد أشار البلاذري إلى وجود أشكال من التنظيم داخل الأسواق الكبرى، حيث ذكر أن" الأسواق لم تكن تدار بفوضى، بل كان لكل نشاط أصحابه وقيادته، وكان التاجر يُحاسب إن غشّ أو بخس، وكان يُراقب ما يبيعه وكم يزن"، ما يدل على أن السوق كان يتمتع بمستوى من الرقابة العرفية السابقة للتنظيم الإسلامي.

المبحث الثاني :المقارنة الاقتصادية بين سوق عكاظ وأسواق أخرى في الجاهلية والإسلام

مقارنة بسوق مجنة وذي المجاز

مثّلت الأسواق الثلاثة الكبرى في الحجاز قبل الإسلام – عكاظ، مجنة، وذي المجاز – مراكز تجارية واقتصادية بالغة الأهمية، لكنها اختلفت فيما بينها من حيث الوظائف، الأدوار، ومكانة كل منها في خارطة التجارة الإقليمية .فقد تميّز سوق عكاظ عن غيره من الأسواق بكونه أكثر شمولية، حيث جمع بين الأنشطة التجارية والثقافية والدبلوماسية، مما أعطاه طابعًا مؤسساتيًا، وهو ما لم يتوفر بنفس القدر في مجنة أو ذي المجاز.

أما سوق مجنة، فكان أقرب إلى الطابع المحلي، وتركّز نشاطه في التجارة اليومية للسلع الأساسية مثل الغذاء، الملابس، والمنتجات الزراعية، وقد ارتبط قبليًا ببني عامر وبعض قبائل الطائف .ومع أنه كان يتمتع بحركة تجارية لا بأس بها، إلا أنه افتقر إلى النشاط الأدبي والخطابي الذي ميّز سوق عكاظ.

وفي المقابل، كان سوق ذي المجاز يقع بالقرب من عرفة، وكان ينعقد قبيل موسم الحج، وقد خدم بشكل أساسي الحجاج والتجار الموسميين، حيث كان نشاطه مكثفًا ولكنه محدود بزمن الحج .وكان سوقًا مهمًا لتبادل السلع قبل أداء المناسك، لكنه لم يرقَ إلى مكانة عكاظ من حيث التأثير الثقافي والاجتماعي.

وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن التنظيم في سوق عكاظ كان أكثر تطورًا من الأسواق الأخرى، إذ توفرت فيه أنظمة عرفية واضحة، وإشراف قبلي صارم، وربما وجود أولي لما يُشبه الرقابة الجماعية على التجارة والأسعار .بينما اعتمد مجنة وذي المجاز بدرجة أكبر على العُرف القَبلي غير الرسمي، دون وجود مؤسسة رقابية متماسكة.

وقد أشار البلاذري في هذا السياق إلى أن عكاظ" كان أوسع هذه الأسواق شهرة، وأكثرها ازدحامًا بالناس، يجتمعون فيه للشعر والمفاخرة والتجارة، وكانت تُعرض فيه القوافل القادمة من اليمن والشام، وهو من أعمدة اقتصاد مكة والطائف"، وهو ما لم يُذكر بهذا الزخم عن مجنة وذي المجاز.

مدى تأثير الإسلام في تنظيم النشاط التجاري

كان لظهور الإسلام أثرٌ بالغ في إعادة تشكيل ملامح النشاط التجاري في الجزيرة العربية، عبر إدخال منظومة أخلاقية وتشريعية صارمة نظّمت السوق، وحمَت المتعاملين فيه، سواء أكانوا من التجار أو المشترين . وفي حين أن الأسواق الجاهلية – كسوق عكاظ ومجنة وذي المجاز – اعتمدت على العُرف القبلي والعلاقات الاجتماعية لضبط السوق، جاء الإسلام ليؤسّس قواعد أكثر شمولًا، تستند إلى العدالة، الأمانة، وحرمة الغش والربا، ما منح الأسواق الإسلامية طابعًا قانونيًا متكاملًا.

وقد شكّل نظام الحسبة أحد أبرز أدوات التنظيم الاقتصادي الإسلامي، حيث عُيّن" المحتسب "لمراقبة الأسواق، وضبط الأسعار، والتأكد من سلامة المكاييل والموازين، والتدقيق في جودة السلع، وفض المنازعات التجارية .كما عزز الإسلام مبدأ حرية السوق، بشرط الالتزام بالقيم الأخلاقية، فأبطل الاحتكار والربا، وشجّع على الشفافية في المعاملات، كما ورد في الحديث الشريف" :البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما."

وفي حين أن أسواق الجاهلية كانت تفتقر إلى هذه المنظومة، فإن الإسلام وحّد الممارسات التجارية ضمن نظام يتوافق مع مقاصد الشريعة، ويخدم المصالح الاقتصادية والاجتماعية للأمة .كما أعاد الإسلام الاعتبار للأسواق، ليس كمجال للكسب المادي فقط، بل كميدان من ميادين العبادة والتكامل المجتمعي، يُحتسب فيه الكسب الحلال، وتُراعى فيه حقوق الطرف الأضعف.

وقد أشار البلاذري في حديثه عن تنظيم الأسواق الإسلامية بعد الفتح إلى أن" الأسواق في المدن المفتوحة مثل البصرة والكوفة والقيروان، نُظّمت بأمر من الخلفاء، ووُضعت فيها مقاييس وموازين، وعُيّن من يراقب الغش ويمنعه"، مما يدل على امتداد أثر تنظيم الإسلام للسوق من المدينة المنورة إلى أطراف الدولة الإسلامية الواسعة.

استمرارية السوق بعد الإسلام أو اندثاره

رغم أن سوق عكاظ كان في الجاهلية أحد أبرز المعالم الاقتصادية والاجتماعية في شبه الجزيرة العربية، إلا أن ظهور الإسلام وما تبعه من تحولات سياسية واقتصادية ودينية أدّى إلى تغير جوهري في وظيفة هذا السوق ومكانته .فمع تركيز الإسلام على الوحدة الدينية وتنظيم الأسواق داخل المدن الكبرى مثل المدينة ومكة والبصرة والكوفة لاحقًا، تقلّص دور الأسواق الموسمية المرتبطة بالشعر والمفاخرة القبلية، ومن بينها سوق عكاظ.

وقد ورد في المصادر التاريخية أن السوق توقف بشكل نهائي تقريبًا في نهاية العقد الأول من الهجرة، إثر معركة الفجار وبعض التوترات الأمنية التي جعلت من إقامته أمرًا محفوفًا بالمخاطر، بالإضافة إلى تغيّر أولوية المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة، حيث اتجهت الجهود إلى بناء أسواق دائمة تحت إشراف الدولة الإسلامية، كما في سوق المدينة الذي أسسه النبيﷺ ، وكان من أوائل الأسواق الإسلامية ذات التنظيم الرسمي.

ومع ذلك، بقيت ذكرى سوق عكاظ محفوظة في الذاكرة العربية، وقد استُحضرت في الأدبيات والشعر والتاريخ كمثال على عظمة السوق الجاهلي من حيث التنظيم والتنوع والرمزية الثقافية، وإن لم تستمر بوظيفتها المادية .أما في العصر الحديث، فقد أُعيد إحياؤه رمزيًا ضمن مهرجانات ثقافية في المملكة العربية السعودية، كمشروع لإحياء التراث العربي، مع محاولة محاكاة أجوائه التجارية والأدبية.

وبذلك يمكن القول إن سوق عكاظ لم يستمر بعد الإسلام كمؤسسة اقتصادية فعلية، لكن روحه الثقافية بقيت حية في وجدان العرب والمسلمين، وشكّلت نموذجًا أوليًا للأسواق الإسلامية اللاحقة التي اعتمدت على التنظيم والرقابة الشرعية والمبادئ الأخلاقية في التجارة.

النتائج

أولًا :السوق كان متعدد الوظائف في المجتمع العربي قبل الإسلام

أظهر البحث أن سوق عكاظ لم يكن مجرد مركز لتبادل السلع، بل كان يؤدي وظائف اجتماعية وثقافية واقتصادية لعبت دورًا مركزيًا في المجتمع الجاهلي .فقد جمع بين التجارة، والأنشطة الأدبية، والمنافسات الشعرية، والصلح بين القبائل، ما جعله يتجاوز مفهوم السوق بالمفهوم المادي الضيق .كما شكّل منبرًا لعرض القيم القبلية وتعزيز التقاليد العربية من خلال التلاقي والتفاعل بين مختلف فئات المجتمع.

ثانيًا :التنوع الطبقي والاقتصادي داخل السوق

بيّنت الدراسة وجود طبقات متعددة من التجار في سوق عكاظ، من أصحاب القوافل الكبرى إلى صغار الباعة، كما أبرزت تنوع البضائع المتداولة بين سلع أساسية وبضائع فاخرة مستوردة .واستخدم السوق أدوات دقيقة في القياس والتثمين، وكان خاضعًا لأنظمة عرفية تنظم المعاملات وتحكم علاقات البيع والشراء، وهو ما مثّل نواة مبكرة للأنظمة الاقتصادية في المجتمعات الإسلامية.

ثالثًا :تأثير الإسلام في تنظيم النشاط التجاري

أكدت الدراسة أن الإسلام أدخل منظومة أخلاقية وتشريعية دقيقة لتنظيم الأسواق، تمثلت في إلغاء الغش، وتحريم الربا، ومراقبة المكاييل والموازين .وقد أعاد الإسلام تعريف السوق كمكان للكسب المشروع المنضبط بالشريعة، وساهم في تثبيت قيم العدالة والشفافية في النشاط التجاري، من خلال مؤسسات مثل الحسبة وسوق المدينة المنورة المنظم.

رابعًا :تراجع سوق عكاظ بعد الإسلام وبقاؤه الرمزي

أظهرت النتائج أن سوق عكاظ اندثر بوظيفته الأصلية بعد الإسلام بسبب تغير أولويات المجتمع الإسلامي، ونشوء أسواق دائمة أكثر انتظامًا داخل المدن الإسلامية .غير أن قيمته الرمزية والثقافية استمرت حية في الذاكرة الأدبية والتاريخية، وتم استحضاره لاحقًا كمثال على عراقة الأسواق العربية، وقد تم إحياؤه في العصر الحديث كمهرجان ثقافي يعيد إنتاج التراث العربي بأسلوب معاصر.

المصادر

- ابن منظور، محمد بن مكرم .لسان العرب .بيروت :دار صادر،.1990
- البلاذري، أحمد بن يحيى .فتوح البلدان .بيروت :دار الكتب العلمية،.1983
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم .الحسبة في الإسلام .القاهرة :دار المعرفة،.1971
- الجاحظ، عمرو بن بحر .البيان والتبيين .بيروت :دار ومكتبة الهلال،.1990
- مسلم بن الحجاج .صحيح مسلم .تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .بيروت :دار إحياء التراث العربي،.1991
- ابن سعد، محمد بن سعد .الطبقات الكبرى .بيروت :دار صادر،.1968
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم .الشعر والشعراء .بيروت :دار الحديث،.2002
- الطبري، محمد بن جرير .تاريخ الرسل والملوك .بيروت :دار الكتب العلمية،.1987
- السمهودي، علي بن أحمد .وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى .بيروت :دار الكتب العلمية،.1997
- الماوردي، علي بن محمد .الأحكام السلطانية .بيروت :دار الفكر،.1990
- ياقوت الحموي، شهاب الدين .معجم البلدان .بيروت :دار إحياء التراث العربي،.1979
- الأصفهاني، أبو الفرج .الأغاني .بيروت :دار صادر،.2004
- ابن هشام، عبد الملك .السيرة النبوية .بيروت :دار المعرفة،.2001
- البخاري، محمد بن إسماعيل .صحيح البخاري .بيروت :دار ابن كثير،.1987
- زيدان، جرجى .تاريخ التمدن الإسلامي .بيروت :دار الهلال،.1993